الوصف فى شعر المتنبى

بقلم المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد على الملكية الاميرية للبنات

— ١ —

الوصف فى الشعر العربى من أهم أغراضه وأجداها على اللغة ، لخصبه وتنوع فنونه ؛ فإنه كالرسم والتصوير ، يتناول من الكون نواحى شتى : فيمثل المناظر الطبيعية ، من السماء بليلها ونهارها ، ونجومها وشمسها وقمرها ، وغيمها وصحوها ؛ ومن الأرض بما عليها من بحار وأنهار ، وبحيرات وغدران ؛ وما فيها من صحارى ذات رمال ، ووحش وحيوان ، ومن بساتين وحقول ، تهتز وتموج بالنجم والشجر ، والزهر والثمر ؛ وينتظم ما يصطنعه الناس على هذه الأرض ، من آثار باقية ، وقصور رفيعة ، وقلاع حصينة ؛ بل إنه ليسجل لنا ما لا يطول أمده : من المجالس وما تزدان به ، وما يجرى فيها من حركات ، وما يسمع من أحاديثها وأغانيها ؛ ويجلو علينا ما فاتتنا رؤيته وشهوده ، من الحرب والطرد والصيد ؛ بل إنه لينقل إلينا شعور النفوس وإحساسها ، ويعرض على أبصارنا وأسماعنا خلجات القلوب ووجدانها ، وصفات الناس وسجاياها .

فهو غرض واسع النواحى ، بعيد ما بين الأطراف ؛ وقلما يلمّ الشاعر بأطرافه جميعا ، فضلا عن الإجادة فيها ؛ ولكل من الشعراء الوصافين فن أو فنون من الوصف ، تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ؛ وذلك بحسب مناظر البيئة التى تقلب فيها ، والظروف التى اكتنفته واتصلت بإحساسه ، وتغلغلت آثارها فى مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكرها شعوره ؛ فلا ينتظر من الشاعر أن يجيد إلا فى الناحية التى هيأته لها

حياته ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ، ومثار آماله وآلامه .

وكذلك الناس فى حياتهم ؛ فقد زرت (المعرض) ومعى شيخ من كبار الزراع ، له مع الزراعة صداقة خمسين سنة وخبرتها ، وكان يصحبنا شاب خلىّ من تبعات الحياة ، فهو لا يزال سادرا فى اللهو واللعب ، مقبلا على هواه . . . فلما أجزنا الباب ، وتوسطنا الساحة التى تفضى إلى أقسام المعرض ، وقفنا نُجيل الرأى فيما يحسن البدء بزيارته : فاقترحت أن نعجّل بمعرض وزارة المعارف ، ورغب الشيخ الفلاح فى المعروضات الزراعية ؛ أما الشاب فلم يؤثر شيئا على آخر ، فما كان همه إلا الإسراع ، لتبقى له فسحة من الزمن فى (الملاهي) .

وهكذا حال الشعراء الوصافين ؛ فمنهم من يسرف فى وصف الطبيعة الجميلة ؛ لغرامه بها ، وتقلبه بين مناظرها . وقلة ما يصرفه عن اجتلاء محاسنها . . . ومن يصف المفاوز والإبل وحيوان البر ؛ لكثرة ما تتقاذفه الفيافى ، وطول ماعاش بين رمال البوادى ، فهى دنياه ومجلى هواه . . . ومن يصف البحر وما فيه ؛ لكثرة ما ركبه وعانى من أحواله ، وتكرار ما شاهد فُلْكه وجزره وخلجانه . . . إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى استيفائه الآن .

— ٢ —

ولقد كان شاعرنا أبو الطيب رجلا بعيد الهم ، طموحا إلى المجد ، يشعر بأن له حقا عند الأيام تمطله به ، فهو يسعى جهده لإدراكه ؛ وقد نشأ منذ نعومة أظفاره عالى الهمة ، كبير النفس ، بعيد مرمى الأمانىّ ، مشغولا بتحقيق مطالبه ، وإدراك مآربه ؛ وقد رأى أن الوسيلة إلى ذلك إنما هى القوة والحرب ؛ فلن ينال ما يبغى من هذه الحياة ، إلا بالقنا المشتجرة ، والسيوف المرهفة ، والخيول السوابق ، والجنود الأقوياء ؛ وقد شهد الحرب منذ نشأته . ووعت نفسه الشاعرة مناظرها ، وهيئات المحاربين وآلات القتال ؛ واتصل بكثير من القادة فى حياته ، وعاشر سيف الدولة ، ولازمه زمنا مديدا ، وحضر وقائعه مع الروم ، ومع الخارجين عليه من الأعراب ؛ وانغمس فى تيار الحياة لعهده ، وهى تدور على

قطب الحرب والقتال ؛ فلا غرو بعد ذلك أن يجيد أبو الطيب وصف الجيوش ، وساحات الوغى ، وآلات القتال من خيل وسيوف ورماح ، ومظاهر الانتصار والانهزام . . .

وهذه صورة لجيش الحسن بن عبيد الله بن طغج ، قد رسمها المتنبي ، فجلا أمامك هذا الجيش ، كأنك تسمع جلبته ، ويملك سمعك ضوضاؤه ، وترى كثرته تغطى الأرض ، فرماته لا يفلت الطير من نبالهم ، ولا يفوت الوحش المنزعج عن مكامنه سهامهم ، بل لا يلبث كلاهما أن تناله أيديهم وسلاحهم ؛ ثم تقلب وجهك فى السماء ، فترى النسور تزدحم فوقه حائمة محلقة ، فلا تجد الشمس طريقا إلى الأرض من زحمة القشاعم وتلاصق ريشها ؛ فإذا صادف ضياؤها فرجة رسم دراهم مستديرة على المغافر ؛ وتشهد لمعان السلاح فى جوانبه يطغى على البرق فيخفيه ، وتسمع همهمة الفوارس تعلو هزيم الرعد فتغطيه :

وَلاَ يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إِلاَّ بِهُجْهَةٍ مُعَظَّمَةٍ مَذْخُورَةٍ لِلْعَظَائِمِ
وَذِي لَجَبٍ ، لاَ ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ ، وَلاَ الْوَحْشُ الْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لاَقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ فَوْقَهُ مِنَ اللَّمْعِ فِى حَافَاتِهِ وَالْهَمَاهِمِ

* * *

وقد وصف إيقاع سيف الدولة ببنى عقيل ، وقشير ، وبنى العجلان ، وبنى كلاب ؛ فصور الطراد بين الجيش ، وانهزام الثائرين من هذه القبائل ، ومثل شدة اضطرابهم حينما لاذوا بالفرار ، وإرهاق نسائهم المردفات على الخيل ، ووقوع الأطفال تحت سنابكها ؛ وهذا كله بتصوير بليغ ، لا تشك إذ تقرؤه أنه يعرض عليك مناظر واضحة متتابعة على سبيبة الخيالة(١) فقال (والضمير لخيل سيف الدولة) :

(١) شريط السينما

تُثِيرُ عَلَى سَلَمِيَّةَ مُسْبَطِرًّا ... تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلَا الشِّعَارُ(١)

عَجَاجًا تَعْثُرُ الْعِقْبَانُ فِيهِ ... كَأَنَّ الْجَوَّ وَعْثٌ أَوْ خَبَارُ(٢) !

وَظَلَّ الطَّعْنُ فِي الْخَيْلَيْنِ خَلْسًا ... كَأَنَّ الْمَوْتَ بَيْنَهُمَا اخْتِصَارُ

فَلَزَّهُمُ الطِّرَادُ إِلَى قِتَالٍ ... أَحَدُّ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ(٣)

مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ ... لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ

يَشُلُّهُمُو بِكُلِّ أَقَبَّ نَهْدٍ ... لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ(٤)

وَكُلِّ أَصَمَّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ ... عَلَى الْكَعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مِمَارُ(٥)

يُغَادِرُ كُلَّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ ... وَلَبَّتُهُ لِثَعْلَبِهِ وِجَارُ(٦)

... ...

وَجَاءُوا الصَّحْصَحَانَ بِلَا سُرُوجٍ ... وَقَدْ سَقَطَ الْعِمَامَةُ وَالْخِمَارُ(٧)

وَأَرْهَقَتِ الْعَذَارَى مُرْدَفَاتٍ ... وَأَوْطَأَتِ الْأُصَيْبِيَةُ الصِّغَارُ.

ألا ترى إلى إبراز المعانى ماثلة للأبصار ، آخذة بالألباب ؟ إنى كلما أنشدت هذا أو مثله من شعر المتنبى ، تذكرت على الفور بيتين للأستاذ الجارم فى شعر المرحوم شوقى بك :

---

(١) سلمية : مكان ـ المسبطر : الغبار الثائر الممتد ـ الشعار : علامة تميز الفرسان

(٢) الوعث : الرمل تغيب فيه القوائم ـ والخبار : الأرض اللينة .

(٣) لزهم : ألجأهم .

(٤) الأقب من الخيل : الضامر ـ النهد : العالى المشرف .

(٥) الأصم من الرماح : الشديد غير الأجوف ـ يعسل : يضطرب ـ ممار : اسم مفعول من أماره إذا أساله فهو الجارى .

(٦) الثعلب من قناة الرمح ما يدخل فى السنان ـ الوجار : بيت الضبع .

(٧) الصحصحان : المكان المستوى من الأرض .

وإن وصف الحرب خلتَ الخِراب تســـد من الأرض أقطارها
فتُمسك جنبك ذعراً ، تخاف قناها ، وترهب بتارهـــا !

✡ ✡ ✡

وفى إحدى مدائحه لكافور ، يقصّ عليه بعض متاعبه فى أسفاره ، فيقول : إنه كان يكمن النهار ويسرى الليل ، خشية أن يشغله أعداؤه عما هو بسبيله ، وكان (فى مكمنه) يتخذ أذنىْ حصانه مقياسا للأمن والفزع ، فيجعل بصره معقودا بهما ؛ فإن الحصان إذا رأى شيئا نصبهما متشوفا ، فيعلم الفارس ذلك ؛ وهنا تسنح الفرصة لوصف الحصان ، فيغتنمها الشاعر ، ويوفيه بعض حقه ، ولا يقتصر على جسمه ، بل يصف مرحه ونشاطه ، وسرعة عدوه وقوته وصلابته ، حتى ليدركُ الوحوش فلا يدركه نصب ولا يحس الكلال :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ : أَيَّانَ تَغْرُبُ؟
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَىْ أَغَرَّ كَأَنَّهُ مِنَ اللَّيْلِ ، بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ تَجِيءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ ، أُدْنِي عِنَانَهُ فَيَطْغَى ، وَأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ
وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

ولخبرة شاعرنا بالخيل ، وكثرة معاناته لأمورها ، يقف بالسامع بعد هذا الوصف يلقى عليه درس خبير بصفاتها ومنافعها ، ويحذره أن يشغله عن الصفات ظاهر أعضائها ؛ ولكنه لا ينسى أن يلتفت إلى معنى يملك عليه نفسه فيسجله ، وهو ندور الإخلاص فى الأصدقاء .

وَمَا الْخَيْلُ إِلاَّ (كَالصَّدِيقِ) قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ
إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا ، فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

وهنا نلاحظ أن أبا الطيب لا يقف كثيرا عند ظاهر الألوان والحركات ؛ ولا يلبث أن تسابق بصيرتُه المفكرة عينَه المبصرة ، لتسجيل صفات الأشياء ومايرجو من جدواها ؛ فانظر إلى وصفه للخيل بقوة الحوافر وصلابتها ، وصدق النظر فى الظلام وبعد مداه ، ووحدة السمع ، ووضوح ما تسمع ، على ما به من شديد الخفاء :

تَمَاشَى بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَافَتِ الصَّفَا نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُزَاةِ حَوَافِيَا (١)
وتَنْظُرُ مِنْ سُودٍ صَوَادِقَ فِى الدُّجَى يَرَيْنَ بَعِيدَاتِ الشُّخُوصِ كَمَاهِيَا
وَتَنْصِبُ لِلْجَرْسِ الْخَفِىِّ سَوَامِعًا يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا

* * *

ومثل ذلك وصفه للسيوف برقة المضارب ، لتكون أسرع نفاذا فى الضرائب ؛ وباللمعان كشعل النار ، لتكون أشد رهبة فى نفوس الأعداء ؛ وبالعرى كالمحرمين مع أنها تدين بحل الدماء :

وَعَوارٍ لَوَامِعٍ دِينُهَا الْحِـــلُّ ، وَلَكِنَّ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ

وأجمل ما وصف به السيف أنه يهتدى إلى المقاتل فى ظلام النقع ، حيث لا يرى المحارب نفسه :

يَرَى حَدُّهُ غَامِضَاتِ الْقُلُوبِ إِذَا كُنْتُ فِى هَبْوَةٍ لَا أَرَانِى

ولكن لا يفوتنا هنا أن نشهد لابن دريد بسبق أبى الطيب إلى هذا ، بل كان أبلغ منه وأكثر مبالغة ، إذ يقول فى مقصورته :

يُرِى المنونَ حين تقفو إثره فى ظُلَم الأكباد سبلا لا تُرَى

ويصف أبو الطيب أسنة الرماح فيقول :

قَوَاضٍ مَوَاضٍ ، نَسْجُ دَاوُدَ عِنْدَهَا (إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ) كَنَسْجِ الْخَدَرْنَقِ (٢)

(١) الصفا : الصخر ، وهى تؤثر فيه أشباه صدور البزاة
(٢) الخدرنق : العنكبوت

تَفكُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ دِرْعٍ وَجَوْشَنٍ وَتَفْرِى إِلَيْهِمْ كُلَّ سُورٍ وَخَنْدَقِ

غير أنَّ هذا الوصف (الذى يميل نحو المعنويات) لا يصح أن يشغلنا عن رواية بيتين له فى وصف السيف حسيا ، لما فيهما من جمال التصوير ، فانظر إلى شُطَب السيف التى تشبه طرق النمال ، كيف يتخيلها أبو الطيب ماء استعمل فى الرقم على لهب النار ، فكان أدق شىء كالخط الذى فى العُوذ (الأحجبة) ، واعجب كيف يبرق البصر ويتحير من رقراق ماء السيف وتموجاته :

تَحْسَبُ الْمَاءَ خَطَّ فِى لَهَبِ النَّا رِ أَدَقَّ الْخُطُوطِ فِى الْأَحْرَازِ

كُلَّمَا رُمْتَ لَحْظَهُ مَنَعَ النَّا ظِرَ مَوْجٌ ، كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِى

***

— ٣ —

أما البادية فلها أكبر الأثر فى نفس أبى الطيب ، فهى تعرفه وهو يعرفها ويستريح إليها ، وكم عاش فيها ، وتقلب بين نواحيها ، وكم سلك منها مهالك تخون الذئبَ فيها نفسه ، وتخذل الغراب قوائمه ، حتى صار بها مغرما ، يغلب على شعره ذكر مناظرها ، ويصطبغ بصبغتها أسلوبه ؛ بل إنه ليؤثرها على الحاضرة ، ويفضل فى غزله أن يهيم بالبدويات ذوات الحسن الأصيل الموهوب ، دون الحضريات ربّات الجمال المصطنع المجلوب :

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتاً مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبَا

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِى الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

أَفْدِى ظِبَاءَ فَلَاةٍ ، مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ ، وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ

فليس عجيباً أن يختزن فى نفسه صور حيوان البادية : من نوافر الظباء ، وأوابد الوحوش ، ونجائب الابل ، وعتاق الطير ، وكلاب الصيد ؛ حتى إذا عرض له ما يدعو إلى وصفها كانت صورها واضحة فى ذهنه ، لا يحتاج الى استدعائها ، ولا يعنّى نفسه فى تلمسها واستحضارها ، بل إن أوصافها لتفيض على لسانه لأقل

الدواعى والمناسبات . استمع اليه إذ يصف الجيش كأنما ينظر إليه من طيارة ، فتسبق اليه صورة العقاب ، فلطالما رآها وألف مشاهدتها ، حتى ارتسمت فى قلبه وتمثلت فى عينه :

يَهُزُّ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبَيْهِ كَمَا هَزَّتْ جَنَاحَيْهَا الْعُقَابُ

فالبيداء هى مدرسته الأولى ، التى غذت بمناظرها خياله ، وأطلقت فى تصويرها بيانه ، وحسبك دليلا على ذلك أن تراجع ديوانه ، فترى أنه لم يجعل الوصف من الأغراض التى يخصص لها قصيدة ، إلا فيما يمت إلى البادية بأقوى الأسباب؛ فليس فى الديوان (على كثرة ما فيه) قصيدة قائمة على الوصف فحسب ، إلا أرجوزة فى حصان تأخر عنه ظهور الكلأ لوقوع الثلج ، وأخرى طويلة يروى أنه نظمها ارتجالا فى وصف كلب صيد عن له غزال ، فانقض عليه واقتنصه بعد طراد ؛ وثالثة قصيرة فى نزهة جبلية وكلاب صيد أيضا ، ومقطوعة صغيرة فى وصف باز انطلق على حجلة فدق عنقها .

وهو فى أكثر هذا الوصف يمثل رؤية ، والعجاج ، وأبا النجم ، فى أراجيزهم (على بعد العهد بهم) ولا عجب فقد استوحى البادية الأغراض ، واستلهمها الخيال ، واستملاها الألفاظ ، حتى لقد آثر فى جلها أن يجلوها فى معرض الرجز ، وهو بحر البادية ، ووزن الترحل بين أرجائها ، وغناء المائحين والماتحين بالدلاء على الآبار ؛ ونلاحظ هنا أن الروح الحربية قد ساعدت النزعة البدوية : أما فى الحصان فإنه من عدة الحرب كما أسلفنا ، وأما البقية فهى صيد وقنص ، ولا شك أن البراعة فى الصيد والطرد تخدم المهارة فى الحرب وتعين عليها . على أن الطرد حرب ، وإن خلا القرن فيه من السلاح والضغينة والأحقاد ـ وهنا نجد شعر المتنبى متسقا مع نفسه ، مصورا لشعوره أصدق تصوير ، حتى فى الميزان والأسلوب .

وقع الثلج وطال أمد إقامته ، فتأخر ظهور الكلأ ، ثم ذاب الثلج ، وظهر مكانه نبت قصير فى أماكن متباعدة ، فانطلق مهر أبى الطيب يرعى هذا النبت القليل ، فجعل ينظر اليه ، ويصفه وصفا غريبا ، وكأنما اصطلحت الظروف على

الإغراب ، فكان اسم ذلك المهر أشد غرابة ، فالمتنبي يقدمه للقارىء باسم (الطخرور) ، وجاءت الأرجوزة على حرف القاف مثال الشدة والقلقلة ؛ ولكنه مع هذا وصف بارع بديع ؛ وإني أسوق صدرا منه واعدا بشرحه ، فلا تكونن غرابته حائلة دون روايته وتدبر معانيه :

مَا لِلْمُرُوجِ الْخُضْرِ وَالْحَدَائِقِ يَشْكُو خَلَاهَا كَثْرَةَ الْعَوَائِقِ ؟
أَقَامَ فِيهَا الثَّلْجُ كَالْمُرَافِقِ يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ الْبَاصِقِ
ثُمَّ مَضَى ، لَاعَادَ مِنْ مُفَارِقِ ! بِقَائِدٍ مِنْ ذَوْبِهِ وَسَائِقِ

فهو يقول : إن نبت هذه المراعي الفسيحة ، قد منعته التبكيرَ في الظهور موانعُ جمة ، كالبرد ، والثلج الذي طالت إقامته فيها ، ولشدة برده يجعل ريق الباصق جامداً على أسنانه (وهذا وصف بدوي جاف أبرد من جليد القطبين) ولما أذابه الحر انحسر ، فمضى متدفعا يسوق بعضه بعضا .

وبعد ذلك يصف النبت بالقصر والقلة ، وكأن المهر (إذ يرعاه متنقلا مسرعا لتباعده) منطلقٌ إثر إنسان هارب يبغي إدراكه ؛ ويزيد في وصف النبت أنه لاصق بالأرض ، وأن تناول الحصان له (مترددا هنا وهناك) شبيه بمحوك الحبر من الصحائف ، متنقلا من هذه إلى تلك مسرعا ، ثم يشبهه بالشاهين (في عبارة بدوية لا أثر فيها للحاضرة) :

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ يَأْكُلُ مِنْ نَبْتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ
كَقَشْرِكَ الْحِبْرَ مِنَ الْمَهَارِقِ أَرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّوذَانِقِ (١)

ويصفه بمخالفة يمناه باقي القوائم لونا ، وبطول عنقه ، وغلظ أطرافه ، وتدانى مرافقه ، وسعة صدره ، وشرف أخلاقه لكرمه وعتقه ، واتساع منخره ،

(١) السوذانق : الشاهين معرب ، والكاف بمعنى مثل ، والهاء في أرود للنبت ، وفي منه للحصان ـ أرود هذا النبت بمثل الشاهين من هذا الحصان .

وضمور خاصرته ، والتحجيل ، وارتفاع الجسم وإشرافه ، وحمرة لونه حمرة متوسطة ، وتوسطه بين السمين والمهزول :

بِمُطْلَقِ الْيُمْنَى ، طَوِيلِ الْفَائِقِ عَبْلِ الشَّوَى ، مُقَارِبِ الْمَرَافِقِ (١)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ذِي مَنْخَرٍ رَحْبٍ ، وَأَطْلٍ لاَحِقِ
مُحَجَّلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقِ

وقبل أن نودع هذا الحصان لا يفوتنا أن نروى فيه أبياتا أخف من السابقة ؛ ولكنها أدل على بدوية أبى الطيب ، وسعة معرفته بالبادية وحيوانها ومظاهرها ، فهو يزعم لحصانه من الفضل : أنه فاق الخيل العتاق الضاربة فى السن ولما يفارقه شعر البطن ، وأربى على ذُكران النعام بدقة الساق وصلابتها ، ويبالغ فى قوة حوافره وصلابتها ، فوقع حوافره فى الأرض أشد من فعل الصواعق ؛ ثم يزعم أنه أوفى على الأرانب فى انتصاب الآذان ودقتها ، وهو بعدُ أحذر من العقعق (وهو طائر كالغراب يضرب به المثل فى الحذر) - وهنا تحمى بالمتنبى مبالغته فيضفى على حصانه صفات لا يمتاز بها كثير من بنى الإنسان ، فهو خبير بالكلام يعرف هزله وجده ، ذكى حاد لا ينام الليل ، بل يحرس الركب النيام ، وينذرهم باللص إذا أحس اقترابه ، وهو ماهر حكيم فيما يأتى وما يدع ، ولكنه قد يظهر بعض الحمق ، لشدة جريه ، وتناهيه فى عدوه :

بَذَ الْمَذَاكِي وَهْوَ فِي الْعَقَائِقِ وَزَادَ فِي السَّاقِ عَلَى النَّقَانِقِ
وَزَادَ فِي الْوَقْعِ عَلَى الصَّوَاعِقِ وَزَادَ فِي الْأُذْنِ عَلَى الْخَرَانِقِ
فِي الْحِذْرِ عَلَى الْمَقَاعِقِ يُمَيِّزُ الْهَزْلَ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَيُنْذِرُ الرَّكْبَ بِكُلِّ سَارِقِ يُرِيكَ خُرْقًا وَهْوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ

* * *

ويروى أن أبا على الأوراجى أرسل كلبا على ظبى فقنصه ، فتدفق أبو الطيب

(١) الفائق مفصل الرأس فى العنق - كناية عن طول الرقبة .

بحرا متلاطم الموج ، وجعل يهدر فى تصوير هذا المنظر بأرجوزة طويلة ، حتى استكمل الصورة ، برسم مكانها ، وتصوير الظبى ، ثم الاطناب فى الكلب وطرده الظبى حتى غلبه وعلاه : فوصف الروض الذى نزلوه بأنه غير معد لاقامتهم ، بل هو منزل تباكره أيدى السحائب الهواطل ، فهو رطب الخزامى ، ذكى رائحة القرنفل ، تغدو فيه الوحوش وتروح ، وليس يحله الناس :

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلِ وَلَا لِغَيْرِ الْغَادِيَاتِ الْهُطَّلِ
نَدِيِ الْخُزَامَى ، ذَفِرِ الْقَرَنْفُلِ مُحَلَّلٍ مِنَ الْوَحْشِ ، لَمْ يُحَلَّلِ (١)

ثم انتقل إلى الظبى فكان فيه متغزلا رقيقا ، كأنما ينسب به ويشبب تشبيبا ، فوصفه وصفا تحسده عليه الغانيات لولا قرناه ، وأنه هالك بعيد النجاه :

عَنَّ لَنَا فِيهِ مُرَاعِي مُغْزِلِ مُحَيَّنُ النَّفْسِ ، بَعِيدُ الْمَوْئِلِ (٢)
أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنْ لُبْسِ الْحُلِي وَعَادَةُ الْعُرْيِ عَنِ التَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ مُعْتَرِضًا بِمِثْلِ قَرْنِ الْأُيَّلِ
يَحُولُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالتَّأَمُّلِ

وتدفع سيله فى وصف الكلب عن تجربة واختبار ، فقال : إنه واسع الشدقين ذو ساجور وسلسلة فى عنقه ، ضامر مفتول ، يسطو بشراسة ، وفى خلقه طول ، وليس يلهيه ولا يفزعه ويحيره بغام الغزال ، بل يمضى فى الانقضاض عليه ، مع شدة متنه وفقاره ، ولين مفاصله ، ليكون مقداما سريع العدو والقنص ؛ وهو (فوق ذلك) كثير التلفت ، حديد البصر ؛ فيرى مدبرا كما يلحظ مقبلا ، وعينه فى صفاء المرآة ، يسرع فى الحزون سرعته فى السهول ، فإذا تسابق مع كلاب أخر وكان فى أول الشوط تاليا متأخرا ، بلغ نهاية الشوط سابقا متبوعا لا تابعا :

(١) يريد من الوحش ، فحذف النون على لغة تجرى بها ألسنتنا الآن فى الدارجة
(٢) المغزل : الظبية وراءها ولدها . ومراعيها : ظبى يرعى معها ـ والمحين من الحين وهو الهلاك

فَحَلٌّ كَلاَّبِى وَثَاقَ الأَحْبُلِ عَنْ أَشْدَقٍ، مُسَوْجَرٍ، مُسَلْسَلِ
أَقَبَّ، سَاطٍ، شَرِسٍ، شَمَرْدَلِ مِنْهَا، إِذَا يُثْغَ لَهُ لاَ يَغْزِلِ[1]
مُؤَجَّدِ الفِقْرَةِ، رِخْوِ المَفْصِلِ لَهُ - إِذَا أَدْبَرَ - لَحْظُ المُقْبِلِ
كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجَنْجَلِ يَعْدُو - إِذَا أَحْزَنَ - عَدْوَ المُسْهِلِ
إِذَا تَلاَ جَاءَ المَدَى وَقَدْ تُلِى

ثم ما ذا يرى القارىء فى هيئة الكلب مقعيا لأخذ الصيد، إذ يرسمه المتنبى بهذا البيت :

(يُقْعِى جُلُوسَ البَدَوِىِّ المُصْطَلِى) ؟ إنه لتصويرُ عبقرى مفتنٌّ ! انظر كيف يجلو أمامك هذه الصورة فى هيئة البدوى الجالس مقبلا على النار بأعلى جسمه مباعدا بين ركبتيه ؛ ليستوفى أكثر ما يمكن من الدفء لأكثر الأعضاء .

والأرجوزة طويلة جدا، وجل أبياتها فى الحسن سواء، ومن حق المتنبى أن نرويها كلها، والمقام يضيق عنها كاملة . فلنقتصر (بعد ما مر) على طرد الكلب للظبى الذى وقع فى قبضة المنون، بأنياب ذلك الكلب الحداد كالنصال، وفيها الهلاك :

فَانْبَرَيَا فَذَّيْنِ تَحْتَ القَسْطَلِ قَدْ ضَمِنَ الآخَرُ قَتْلَ الأَوَّلِ
فِى هَبْوَةٍ كِلاَهُمَا لَمْ يَذْهَلِ مُقْتَحِماً عَلَى المَكَانِ الأَهْوَلِ[2]
يُخَالُ طُولَ البَحْرِ عَرْضَ الجَدْوَلِ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ : نِلْتَ، افْعَلِ

---

(١) الثغاء : صوت الشاة شبه به بغام الغزال - وجزم فعلين باذا - وهو خاص بالشعر فى لغة . كما قال الأول :

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل .

(٢) الهبوة : الغبرة، والقسطل : الغبار أيضا .

اِفْتَرَّ عَنْ مَذْرُوبَةٍ كَالْأَنْصُلِ لَاتَعْرِفُ الْعَهْدَ بِصَقْلِ الصَّيْقَلِ
مُرَكَّبَاتٍ فِي الْعَذَابِ الْمُنْزَلِ كَأَنَّهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِي الشَّمْأَلِ
كَأَنَّهَا مِنْ ثِقَلٍ فِي يَذْبُلِ كَأَنَّهَا مِنْ سَعَةٍ فِي هَوْجَلِ (١)
كَأَنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ عَلَّمَ بِقْرَاطَ فِصَادَ الْأَكْحَلِ

* * *

ولما أوقع عضد الدولة بالأكراد، عاد يتلهّى بالصيد فى برّية جبلية فى طبرستان، مأهولة بصنوف الطير المائى، وضروب الحيوان الوحشى: من أيايل، وأسود وخنازير، وأشبال وخنانيص (٢)، ودِبَبه وغزلان، ونعام ورئال، وضباب وأورال (٣)، وبقر وثيران؛ وهنا وجدت شاعرية صاحبنا مناظر خصبة، فيها لعينه مجال، ولخياله مدد فياض، ووجد هو مكان القول ذا سعة فقال، وأوسع تلك البرية وصفا، ولم يمدح عضد الدولة بمقدار ما أسرف فى وصف حيوانها، ولا سيما الوعول (التيوس الجبلية) فقد أبدع فى تصويرها تصويراً ساخرا بليغا، وكانت لحاها أشد ما هاج سخريته البارعة؛ فانظر إليه يصف قرونها، فيجلوها قسيًّا من شجر الضال طويلة مسترسلة على ظهورها، لا تفتر أطرافها عن نخس أكفالها، حتى لتكادُ تنفذ من خواصرها:

وَأَوْفَتِ الْفُدْرُ مِنَ الْأَوْعَالِ مُرْتَدِيَاتٍ بِقِسِيِّ الضَّالِ (٤)
نَوَاخِسًا الْأَطْرَافِ لِلْأَكْفَالِ يَكَدْنَ يَنْفُذْنَ مِنَ الْآطَالِ

---

(١) الهوجل: الأرض الواسعة.
(٢) الخنانيص جمع خنوص: صغار الخنازير.
(٣) جمع ورل: دويبة شبيهة بالضب.
(٤) الفدر: جمع فدور على فعل «بضمتين» وأسكنها للوزن. والفدور من الوعول: المسنة الضخمة. وأوفت: أشرفت.

ثم انظر كيف استخفت لحى الأوعال وقاره ، وذهبت برزانته واتزانه ، فاوسعها استهزاء وسخرا لا يخلو من معنى مقصود سنعود إليه بعد :

لَهَا لِحًى سُودٌ بِلا سِبَالِ ... تَصْلُحُ لِلإِضْحَاكِ لا الإِجْلالِ (١)
كُلُّ أَثِيثٍ نَبْتُهَا ، مِتْفَالِ ... لَمْ تُغْذَ بِالْمِسْكِ وَلا الْغَوَالِي (٢)
تَرْضَى مِنَ الأَدْهَانِ بِالأَبْوَالِ ... وَمِنْ ذَكِيِّ الْمِسْكِ بِالدِّمَالِ (٣)
لَوْ سُرِّحَتْ فِي عَارِضَيْ مُحْتَالِ ... لَعَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ
بَيْنَ قُضَاةِ السُّوءِ وَالأَطْفَالِ

ولا بد هنا من استكمال صورة الأوعال ، وهن يتساقطن من رءوس الجبال ، بعد أن أثخنتها سهام الرماة بالجراح ، فهن يعدون على فقار الظهور والأقفاء ، غيرَ شاكيات من الكلال ، فقد كفاهن الانحدار إياه ، ولا خائفات من الضلال ، فالأرض غاية السفر ونهاية مداه :

فَهُنَّ يَهْوِينَ مِنَ التِّلالِ ... مَقْلُوبَةَ الأَظْلافِ وَالإِرْقَالِ
يُرْقِلْنَ فِي الْجَوِّ عَلَى الْمَحَالِ ... فِي طُرُقٍ سَرِيعَةِ الإِيصَالِ (٤)
يَنْمِنَ فِيهَا نِيمَةَ الْكَسْلانِ ... عَلَى الْقَفِيِّ أَعْجَلَ الْعِجَالِ
لا يَتَشَكَّيْنَ مِنَ الْكَلالِ ... وَلا يُحَاذِرْنَ مِنَ الضَّلالِ

* * *

(١) السبال : شعر الشفة العليا
(٢) الأثيث : الكثير الملتف ، ومتفال : منتنة الريح
(٣) الدمال : زبل الدواب (السرقين : السرجين)
(٤) الإرقال : نوع من السير ، فعله أرقل يرقل ، والعامة المعنيون بالدواب يقلبون قافه جيما مصرية

— ٤ —

وليس عجيبا أن يتبع المتنبي هذا الأسلوب فى هذا النوع من الوصف ، ويؤثر الإغراب فيه على الوضوح ، ويختار له وزن الرجز خاصة ؛ فإن أبا نواس مع كثرة دعوته للتجديد ، وشدة نفرته من الأساليب البدوية ، أراد أن يظهر براعته وسعة علمه بالغريب ، فنظم فى مثل أسلوب أبى الطيب (بل أقوى منه وأصلب) أرجوزته التى أولها : وبلدة فيها صعَرْ — ويقول فيها :

مَرْتٍ إذا الذئبُ اقتفرْ بها من القوم الأثرْ(١)
كان له من الجزر كل جنين ما اشتكرْ(٢)
ولا تعلاه شعَرْ ركبتها على غرر . . . الخ

وله فوق هذا أرجوزتان فى كلب الصيد ، هما مثال الجزالة والإغراب ؛ وإن بشارا نظم أرجوزته التى أولها : (يا طللَ الحى بذات الصمدِ) تحديا لمن استعجزه أن يجيد النسيج على هذا المنوال ، وهما بعدُ من الموالى غير المحافظين فى لغة العرب على القديم ؛ فكيف بالمتنبي وهو العربى الصميم ، والبدوى القح حتى فى الغزل والنسيب ؟

وإذ ترامى بنا القول إلى بشار وأبى نواس ، وجب أن نذكر عاملا ثالثا كان عميق الأثر فى شاعرية أبى الطيب ؛ وفى هذا النوع من الوصف على الخصوص ؛ ذلك هو استيعابه لكثير من شعر السابقين ، وليس من شك فى أنه كان جيد الحفظ قوى الذاكرة ، وقد سبق عهد التدوين أيامه ، واستبحرت دراسة الأدب القديم ، وقد كان (فيما يروى) يغشى الورّاقين ويطيل اللبث عندهم ، ويتناول كتبهم فيشبع منها نهمه فى طلب الأدب ، ويروى غلته بحفظ الشعر الكثير ، وكان (فيما يقال) يحفظ ديوان أبى تمام ويُعجَب به ؛ ومن كل ذلك نرى أنه قد حفظ كثيراً من الشعر القديم (ولا سيما ما يتعلق بالبادية) حفظ متدبر ، وهضم محفوظه ، فاستطاع أن يمثله ولكن على طريقته . يقول أبو نواس فى الخمر :

(١) اقتفر : اقتفى وتتبع الأثر
(٢) اشتكر : نبت عليه شعر البطن ، وهذا كناية عن إجهاض النوق

فى كئوس كأنهن نجوم جاريات ، بروجها أيدينا
طالعات مع الشقاة علينا فاذا ما غربن يغربن فينا

فيتأثره (أو مثله) المتنبى فى التصوير ، فيصف السيوف قائلا :

خُلِقْنَ شُمُوساً ، وَالْغُمُودُ مَشَارِقٌ لَهُنَّ ، وَهَامَاتُ الرِّجَالِ مَغَارِبُ

أما بيان مبلغ تأثره القدماء ومقدار تأثير شعرهم فى شعره ، فحسبنا الآن أن نلاحظ حرصه على الرجز فى الطرد ، وأنه لم يتحلل من طريقة الأقدمين ، فكأن الطرد عندهم لايحمل إلا فى حلل الأراجيز ؛ أما استيعاب هذا الموضوع فيجور بنا عن القصد ، ولا نستطيع هنا أن نأتى فيه بما يشفى الغليل ، ويكفى أن نشير إلى بعض أطرافه فى تضاعيف الكلام . وقد تجمعت كل العوامل السابقة ، فأعانته على الاجادة والإتقان فى كثير من الوصف ، ولاسيما وصف الأسد ؛ فمناظر البادية متمكنة من نفسه ، والروح الحربى يمتلك لشعوره وحسه ، وهو طبعا قرأ وحفظ وصف البحترى والفرزدق للذئب ، واجتمع إلى كل هذه العوامل إعجابه بالرجال الأقوياء ، الذين يرجو أن يعود على أيديهم مجد العرب سيرته الأولى ، كبدر بن عمار (الرجل) الذى نازل الأسد وتغلب عليه ، وكان قد أعجله عن انتضاء سيفه ، فبادره بالسوط ، وكانت لابن عمار الغلبة ، وهو منظر يستدعى الشعر ، ويدعو إلى التجويد فيه والإبداع ، وكلام المتنبى فيه متعالم مشهور ، فلا نروى منه إلا بيتا يدلك على مبلغ دهشة الشاعر وإعجابه بابن عمار . استمع إليه وهو يصيح مناديا :

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولاَ ؟!

***

— ٥ —

وأنت ترى أبا الطيب يستوحى هذين العاملين القويين فى تكوين خياله وأسلوبه : (البادية وحيواناتها ، والحرب وآلاتها) فاذا شهد مايمت إليهما بنسب ، ويتصل معهما بسبب ، جاشت شاعريته ، فكان مصورا لبقا بارعا ، وأتى بالعجب

العجاب ، ومن ذلك وصفه لفازة كان فيها سيف الدولة . وهى خيمة ديباج ، عليها صور رياض ذات دوح وطير وحيوان ، وهى مؤلفة من عدة أثواب ، كل منها ذو وجهين ، وعلى حواشيه دوائر بيض لطيفة ، كأنها اللؤلؤ المنظوم ، وقد رُسم الحيوان فى هيئة المهارشة والمهاجمة والمدافعة ، لكنه فى الصورة جماد ليس بينه هراش ولا هجوم ولا دفاع ، فاستمع إليه ، وانظر إلى الصور الجمادية ، التى ينفخ فيها من روح الشعر ، ويضفى عليها من قوة الخيال ، مايحركها أمام ناظريك ، وينقل أصواتها إلى مسمعيك :

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهْ (١)

عَلَيْهَا رِيَاضٌ ، لَمْ تَحُكْهَا سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ ، لَمْ تُغَنِّ حَمَائِمُهْ

وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ مِنَ الدُّرِّ ، سِمْطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاظِمُهْ

تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا يُحَارِبُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ، وَيُسَالِمُهْ

وتأمل البيت الآتى بوجه خاص . فهو ينقل اليك صورة الخيل فى الميدان ، وصورة الأُسد تَخْتِل الظباء لتصيدها ، وتطردها لتدركها (يعبر عن ذلك بالفعل تدأى)

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ، كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِيهِ ، وَتَدْأَى ضَرَاغِمُهْ

وإنه ليذكرنا قول البحترى فى إيوان كسرى وما عليه من نقوش حربية :

والمنـــايا مواثـل ، وأنوشرْ وانُ يُزجى الصفوف تحت الدَّرفس (٢)

يغتلى فيهمُ ارتيـــابىَ حتى تتقـــرّاهمو يداى بلمس

وكذلك قول أبى نواس فى كأس ذهبية ، عليها نقوش فارسية :

تدار علينا الراح فى عسجدية حبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ

(١) يريد بقوله (حيا بارق) سيف الدولة على الاستعارة التصريحية .

(٢) الدرفس : العلم .

قرارتها كسرى ، وفى جنباتها مهاً تدريها بالقسىّ الفوارس

ومن بين تلك النقوش (على الفازة) رسم ملك الروم ، وقد تخيله المتنبى (مادح سيف الدولة بإخلاص) ذليلا مهينا ، لكثرة ما أوقع به ذلك الممدوح ، حتى إذا رسم الصانع صورته على هذه الثياب ، فلا مفر من ظهور الذلة عليها ؛ إذ أصبحت ضربة لازب على هيئته لا تفارقها :

وَفِى صُورَةِ الرُّومِىِّ ذِى التَّاجِ ذِلَّةٌ لأَبْلَجَ ، لاَتِيجَانَ إِلاَّ عَمَائِمُهْ

و يرى بعض الباحثين المعاصرين (فيما حاضر به عن سيف الدولة و نزعته الفنية) :

(ا) أن لسيف الدولة صورةً على أحد وجهَى الفازة ، وأمامها صورة ملك الروم فى ذلة وخضوع ، وإنا نلتمس له بعض العذر فيما ارتأى ، ففى بعض شروح الديوان بعد هذا البيت ما يأتى : « يقول صورة ملك الروم على هذا الثوب ساجد (كذا) لسيف الدولة ، وقد خضع له و تذلل على عادته وإن كان متوّجا » لاحظ قوله (على عادته) يساعدك فيما تستقبل من رأينا .

(ب) ويرى أيضا أن ثلاثة الأبيات الآتية تكملةٌ لوصف النقوش التى على الفازة ؛ وها هى ذى .

تُقَبِّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَهُ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُمُّهُ وَبَرَاجِمُهْ (١)

قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِى مِنَ الدَّاءِ كَيُّهُ وَمَنْ بَيْنَ أُذْنَىْ كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهْ (٢)

قَبَائِعُهَا تَحْتَ الْمَرَافِقِ ، ذِلَّةً وَأَنْفَذُ مِمَّا فِى الْجُفُونِ عَزَائِمُهْ (٣)

ولا عذر لمن يصطنع هذه الدعوى الثانية ، فليس فى الكلام ما يُسيغها .

والذى نرضاه هو أن حقيقة ملك الروم فى خيال المتنبى ذليلة (كما أسلفنا)

(١) البراجم : عظام ظاهر الكف ، أو رءوس مفاصل الأصابع .

(٢) يكنى بالداء عن غوائل الأعداء ، وبالكى عن الضرب والطعن ، والقرم : السيد ، والمواسم : جمع ميسم ، وهو الذى يوسم به ، شبه بالمكواة .

(٣) القبائع جمع قبيعة ، وهى الحديدة على مقبض السيف

وأن هذه الفازة (فيما نرى) ليست من صنع العرب ، وإنما هى من عمل الروم ، وقد تكون وقعت لسيف الدولة مغنما أو شراء ؛ وقد كانت المتاجر متبادلة بين المتجاورين ؛ وقد أهدى سيف الدولة لأبى الطيب (فيما كان يهدى) ثياب ديباج من صنع الروم ، وعليها صور بعض ملوكهم ، وصور قيان مغنيات وخيل وأشياء أخرى ، فقال فيها :

ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا ... إِذَا نُشِرَتْ كَانَ الْهِبَاتُ صِوَانَهَا

تُرِينَا (صَنَاعُ الرُّومِ) فِينَا مُلُوكَهَا ... وَتَجْلُو عَلَيْنَا نَقْشَهَا وَقِيَانَهَا

وَلَمْ يَكْفِهَا تَصْوِيرُهَا الْخَيْلَ وَحْدَهَا ... فَصَوَّرَتِ الأَشْيَاءَ إِلا زَمَانَهَا

وَمَا ادَّخَرَتْهَا قُدْرَةً فِي مُصَوِّرٍ ... سِوَى أَنَّهَا مَا أَنْطَقَتْ حَيَوَانَهَا (١)

فأنت ترى (معى) أن هذه الثياب من الديباج ، والفازة من الديباج ؛ وعلى كل منهما صورة ملك الروم والخيل ، وزادت الثياب صورة القيان ، واختصت الفازة بالأسد والحيوان والدوائر البيض . ثم ترى نصا صريحا فى البيت الثانى هنا أن الثياب المهداة من عمل (صناع الروم) لاشبهة فى ذلك ؛ فهل من شك (بعد هذا النص وهذا التشابه فى أكثر الصور) أن الفازة من صنع الروم ؟ بل إن ثياب الفازة (فيما نرى) من نوع ثياب الهدية . وقد وصف كلتيهما الشاعر ، فأتى ببعض الوصف مشتركا فيهما ، واختص كلا منهما بزيادة يقتضيها مقامها . (وبعد) فلا أرى أن صناع الروم كانت تفكر فى رسم سيف الدولة . فضلا عن تصويره عظيما ، وتصوير ملكها أمامه ساجدا ذليلا خاضعا ؛ فلا نرضى كلام الشرح ، ولا ماذهب إليه الباحث الذى اعتمد عليه ؛ وفى قول الشرح (على عادته) لاتعترف به صناع الروم ، بل لايوافق إلا خيال المتنبى فى تصوير خصمه وخصم ممدوحه ، ووسمه بالذلة والهوان .

ونذهب فى الدعوى الثانية (بعد ما عرفت من رد النقش إلى صناع الروم)

---

(١) ضمن ادخر معنى حرم ، فعداه إلى مفعولين ثانيهما قدرة .

أنْ لا صورة على الفازة لسيف الدولة والملوك خاضعين يقبلون بساطه ؛ بل هذا استكمال لحقيقة سيف الدولة فى خيال الشاعر ؛ وهو قد استأنف المدح بعد الوصف فأراد أن يذكر (لمناسبة ذلة الروم) رفعة مقام الممدوح على الملوك وخضوعهم له ، يعمم بذلك ولا يخص ملك الروم ؛ والمضارع (تقبل . . .) فى أول ثلاثة الأبيات للاستمرار التجددى ، أى أن هذه الهيئة تتكرر كثيرا حينا بعد حين ، ولو صح أن الصورة تمثل تقبيل البساط ، وقد وقع الملوك إلى الأرض ساجدين ، لما صح فى البيت الثانى (قياما . . .) وليس من المعقول أن يقعوا للبساط مقبلين ، وقبائع السيوف تحت المرافق (فى البيت الثالث) - وملاحظة أخرى تحول دون إساغة هذا التأويل ؛ وهى ذلك الشطر الأخير (وأنفذ مما فى الجفون عزائمه) فكيف يكون مدحا تفضيل العزائم على السيوف الصورية ؟ إنه إذن عزائم من مذرو الهشيم ، وسوافى الهواء ، وسوابح الهباء !

ألم تر أن السيف يقبح وصفه إذا قيل : هذا السيف خير من العصا ؟ !

* * *

— ٦ —

ولئن كان أبو الطيب ينبعث على سجية نفسه ، وينسجم مع مصادر شعوره وحسه ، حينما يجد مناظر البادية أو ما يقاربها ، إنه ليستغل خيالها فيما هو أبعد من ذلك : يرى سيف الدولة من نساء الروم فى وقعة على نهر (أرسناس) وقد ركبن السفن لعبور هذا النهر ، فيثب خياله إلى كُنُس الظباء فى جوف البادية ، فيقول (يحكى عن سيف الدولة ، وضمير فوقه لنهر أرسناس) : —

فَتَلَ الْحِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ وَبَنَى السَّفِينَ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ

وَحَشَاهُ (عَادِيَةً) بِغَيْرِ قَوَائِمٍ عُقْمَ الْبُطُونِ ، حَوَالِكَ الأَلْوَانِ

تَأْتِى بِمَا سَبَتِ الْخُيُولُ ، كَأَنَّهَا (تَحْتَ الْحِسَانِ) مَرَابِضُ الْغِزْلاَنِ

وهذا وصف بارع جميل لولا المبالغة فى البيت الأول ، وليست غريبة من

شاعرنا ، فكأنه أبو عذرها ، وحافظ سرها ؛ ألا ترى إلى السفن خيلا عاديات بغير قوائم ، ليس من شأنها الولادة والنتاج ، ينتظمها كلها لون واحد هو لون القار ؟ والشطر الأخير ولا سيما (مرابض الغزلان) فيه جمال لا يقوم به كلام آخر فى هذا الباب ، ويشف عن رقة غزلية ، لا تتهيأ إلا لنفس ناعمة هانئة ؛ ولعل نشوة النصر قد أثلجت صدره ، وهزت عطفه ، وأشعرته هدوء البال ، ولعله فى هذا الطور من حياته كان يحس هدنة بينه وبين الدنيا على غير عادته ، أو لعلها خطرة من الخطرات تسنح ثم تمضى !

* * *

أما وصفه لبحيرة طبرية فقد استلهم فيه خياله البدوى ، واستجاش شعوره الحربى : يذكر فى هدير الموج فحول الإبل تهدر بين النياق من غير شهوة للضراب (قطم) ويتخيل فى سبح الطير فوق زبد الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب ، منظر فرسان ركضوا مهارا بُلقاً ، قد انتكثت أعنة لجمها ، فهى تذهب حيث تشاء ، ولا بد أن يستحضر نزالا وطعانا بين جيش : هازم ومهزوم ، إذ يرى الرياح تضربها ، فتصطفق الأمواج ، فتضطرب الطيور يتبع بعضها بعضا : —

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزْبِدَةً ... تَهْدِرُ فِيهَا ، وَمَا بِهَا قَطَمُ
وَالطَّيْرُ (فَوْقَ الْحَبَابِ) تَحْسَبُهَا ... فُرْسَانَ بُلْقٍ تَخُونُهَا اللُّجُمُ
كَأَنَّهَا (وَالرِّيَاحُ تَضْرِبُهَا) ... جَيْشَا وَغًى : هَازِمٌ وَمُنْهَزِمُ

فإذا انتقل إلى منظر البحيرة العام وما يحف بها ، لم يزد على غيره من الشعراء إلا لفظة البدوى الغريب ، وإلغازه الممقوت المعيب ؛ وذلك فيما نروى لك هنا ، واللغز عن السمك فى البيت الثانى :

كَأَنَّهَا (فِى نَهَارِهَا) قَمَرٌ ... حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظُلَمُ
نَاعِمَةُ الْجِسْمِ ، لَا عِظَامَ لَهَا ... لَهَا بَنَاتٌ ، وَمَا لَهَا رَحِمُ
تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فِى جَوَانِبِهَا ... وَجَادَتِ الرَّوْضَ حَوْلَهَا الدِّيَمُ

فَهْيَ كَمَاوِيَّةٍ مُطَوَّقَةٍ جُرِّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ

ومن يقرأ هذا الوصف فلا بد أن ينتقل ذهنه فورا إلى قصيدة البحترى فى بحيرة المتوكل ؛ فيجد فيها جمالا ورقة حضرية ، وتصويرا لبقا ، ليس للمتنبى من كل ذلك ما يسامى البحترى فيما نرى ؛ ونحسبنا أن نشير إليها عامة ، ونذكر منها هذا البيت خاصة عنوانا على محاسنها :

كأنما الفضة البيضاء (سائلةً من السبائك) تجرى فى مجاريها

وليس فى المقام سعة لروايتها كلها والموازنة بينهما ؛ فليرجع إليها من يشاء. يجد كلا الشاعرين قد تأثر فى وصفه ببيئته وحياته ؛ وليس علينا أن نطيل القول هنا .

— ٧ —

وإذ قد ترامى بنا القول إلى ذكر المعانى الحضرية فى الوصف ، فإنا نلاحظ أن المناظر البدوية كانت تطغى على نفسه ، وتكاد تستأثر بها ، فلا تترك فيها مجالا لمناظر الحاضرة ، وكأن الآثار الأولى التى تحرك لها حسه ، وحفلت بها نفسه الشاعرة ، هى التى بقيت على مر الزمان ، منقوشة على صفحة قلبه ، فجعلت تزاحم بالمناكب والمرافق كل جديد ، فلا يظفر هذا الجديد بمخيلة ترسمه رسما واضحا جليا ؛ هذا إلى الهموم التى تصطرع فى قلبه ، فتقتضاه أن يقصر عليها ما عنده من تفكير وشعور . فنسمعه يهتف من أعماقه صائحا :

لَحَى اللهُ ذِى الدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ !

ويشكو من الدهر كثرة مساويه إليه ، وتزاحم رزاياه عليه ، فيستصرخ غير سميع بأندى صوت وأعلاه :

رَمَانِى الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ !

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِى سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ !

وينظر فى نجوم الليل ، فلا يقول فيها ما يقول ابن المعتز ، المنعم فى قصر

الخلافة : (درر نثرن على بساط أزرق) بل لا يجود عليها بأنها حلى على حالك ليل ، إلا ليطيل بعد ذلك فى وصف طول الليل ، وليعد هذه النجوم الدرارى أرقاما حسابية ، يحصى بها ذنوب الزمان وبلاياه :

اقَلِّبُ فِيهِ أَجْفَانِى كَأَنِّى أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا !

ولذلك لا يتوقع منه أن يفرغ لوصف المناظر الحضرية الجميلة ، كالبحترى وابن المعتز ، ولا يتقلب بين جنات هذه الدنيا ، حتى يبدع فى وصف الأنهار والبساتين ، كابن خفاجة وابن حمديس ، ولا تطيب لنفسه كثيرا مجالس الأنس والغناء ، لكى يعزف مع ابن الرومى على أوتار القيان ، ويركض معه فى هذا الميدان :

تغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهنى تجيد
لا تراها - هناك - تجحظ عين لك منها ، ولا يدر وريد
من هدو ، وليس فيه انقطاع وسجو ، وما به تبليد
مد فى شأو صوتها نفس كا ف ، كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجا ، فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلذ بسيطه ، والنشيد

وليس هو بالذى يشرب على الورد من حمراء كالورد ، فيتابع أبا نواس ، وينهز مع الغواة بدلوهم ، ويسيم سرح اللهو حيث أساموا ، ويتداوى من داء الخمار بداء العقار ، ويستريح إلى هذه الراح ، ويتفنن فى تزيينها بالبارق اللماح :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
فعلت فى البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح فى الظلم

وأنى له كل هذا ، والخمر ليس من أربه كما ينادى ، ولا يهتز للأغانى فيما يقول :

أَصَخْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِى لاَ تُحَرِّكُنِى هٰذِى الْمُدَامُ ، وَلاَ تِلْكَ الْأَغَارِيدُ ؟

وكذلك لم يجد فى دنياه صديقا يأنس إليه ، ويستريح إلى صداقته ، وكم لقى من عنت الأيام ولؤم الأنام ! فهل فى قلبه بقية لم يحوها الظلام ؟ ثم إنه لم

يفكر إلا فى نفسه وحقه على الدنيا ، فيمر بكثير من المناظر لا يجود عليها بنظرة ولا التفاتة ، كما تخرج إلى الشارع . تسعى لأمر يعنيك أن ينتهى إلى تمام ، فترى الأشياء ولا تراها ، فاذا سئلت عن منظر فى طريقك أنكرته ، وغيرك يعرفه ويعيه ، وفارغو البال من حولك يُسَبْهلون (١) فى الطريق . ويقلبون البصر فيما وراء المعارض الزجاجية ، من ثياب مطوية ومنشورة . إلى حلىّ براقة مصفوفة ، إلى غيرها من كل ملهّي ومنظر (أنيق لعين (الفارغ) المتوسم) ومن هنا نرى حقيقا باللوم من يلحَى أبا الطيب ، وينعى عليه أنه ورد مصر وتفيأ فى ظلالها ، فلم يظفر منه النيل بقصيدة ، ولم تفز الأهرام منه بمقطوعة ؛ فقد كان فى مصر (كما يقول) حرا يتيما بين عبدان لئام :

حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَبِيدٍ كَأَنَّ الْحُرَّ بَيْنَهُمُو يَتِيمُ

فلم يستروح نسيم الجمال فى أفيائها ، ولا أحس فضل النيل على أهلها ، كما أحس ذلك أستاذنا (الشيخ عبد المطلب) رحمة الله عليه فقال :

يا نيل مصر سقيتنـــا ماء الحيـــاة نميرا
لولاك ما فاح النســـيم بارض مصر عبيرا
والله لقّانا بفضـــلك نضرة وسرورا
لا زال فيضك جاريا بين البـــلاد غزيرا
يكسو الأباطح سندسا من نسجه وحريرا
فترى الرياض نضيرة وترى النبات نضيرا
أنواره زُهر ، تُريـــك اللؤلؤ المنثورا

وماعرف فضل بناة الأهرام ، ولا كان يعبأ بجلالها ، ولايبالى ما تدل عليه ، حتى يقول فيها ما قال البارودى وصبرى وشوقى (رحمهم الله !)

* * *

وما نظنه أجاد وصفَ شِعب بوّان فى طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ،

(١) سبهل : مشى فى الطريق جيئة وذهوبا لغير عمل (يضرب بلطة) ومن كلام عمر رضى الله عنه : «إنى لأكره أن أرى أحدكم سبهللا ، لافى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة »

إلا متحسراً على مجد العرب ، الذى غلب عليه أولئك الأعاجم ، واستأثروا بهذه الجنة من جنات الدنيا وأمثالها دونهم ، فصار العربى فيها غريبا : وجها ويدا وكلاما ! وتجد هذه الحسرة ظاهرة فى بعض لفتاته فى القصيدة النونية ، التى نروى لك صدرها هنا ، وفى تدبر هذه اللفتات مقنع أى مقنع :

مَغَانِى الشِّعْبِ طِيباً فى الْمَغَانِى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

(وَلٰكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِىَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ)

(مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا ... سُلَيْمَانٌ ، لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ)

طَبَتْ فُرْسَانَنَا وَالْخَيْلَ ، حَتَّى ... خَشِيتُ(وَإِنْ كَرُمْنَ)مِنَ الْحِرَانِ

غَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ ... عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ (١)

فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الشَّمْسَ عَنِّى ... وَجِئْنَ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِى

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِى ثِيَابِى ... دَنَانِيراً تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ولا بد أن نقف عند هذا البيت ، وتصويره ضوء الشمس إذ يتسلل من بين الورق المتزاحم ، فيمثل الدنانير التى لا تستقر فى الكف ، بل تسرع هاربة من البنان ، ونرجع إلى بيت آخر فى مثل هذا المعنى ، وقد مرت لنا روايته فى حرياته :

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً ... تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

فانظر تجده مبدعا فى كلا البيتين ؛ ولكنه تدارك فى بيت الشعب ما فاته فى بيت الحرب ، من تسجيل حركة الضوء الدائبة ، لكثرة التذبذب فيما يحول دون الضوء ويحجبه ، من الورق هنا ، وريش القشاعم هناك ؛ وكأنه عاش ليستكمل هذا المعنى البديع فى خريف حياته ؛ ثم هنا ملاحظة أخرى ، وهى

(١) يقصد قطرات الندى ، فهى تحكى الجمان ، وهى حبات من الفضة مستديرة شبيهة باللؤلؤ .

غرامه بذكر الدراهم والدنانير ، التى يراها الطريق إلى المجد ، والوسيلة للمحافظة عليه .

ثم نعود إلى ما نحن بسبيله ، فننقل بقية وصفه ولفتاته :

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا ... بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلاَ أَوَانِ

فهل تجد أحسن من هذا فى وصف الثمار برقة البشرة ، حتى لتشفُّ بشرتها عما تحتها من الماء ، كما ينم عليه صافى الزجاج ؟ ثم استمع إلى صلصلة الحصباء تحت الماء الجارى ، الذى يدحرجها ، ويمتزج صليلها بخريره

وَأَمْوَاهٌ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا ... صَلِيلَ الْحَلْىِ فِى أَيْدِى الْغَوَانِى

وفيما يأتى يظهر التهكم بهؤلاء الأعاجم ، الذين لا يستحقون السكنى حول هذه الجنة ، وفى طيات هذا الاستهزاء ، من التحسر آهات وأنّات :

إِذَا غَنَّى الْحَمَامُ الْوُرْقُ فِيهَا ... أَجَابَتْهُ أَغَانِىُّ الْقِيَانِ

وَمَنْ بِالشِّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ ... إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى الْبَيَانِ

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا ... وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ومن الخير أن يضم إلى هذه الأبيات ، ذلك البيت الذى يَسمُهم بشدة العجمة ، حتى إن سليمان لا يفهم عنهم ، ولا هم عنه يفهمون إلا بترجمان ؛ وأعجب من هذا كله أنّ المتنبى (وليس مثل سليمان) يفهم عن حصانه ، بل ينطقه بالشعر البليغ على لسان الحال إذ يقول :

يَقُولُ بِشِعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِى ... أَعَنْ هٰذَا يُسَارُ إِلَى الطِّعَانِ ؟

أَبُوكُمْ آدَمٌ سَنَّ الْمَعَاصِى ... وَعَلَّمَكُمْ مُفَارَقَةَ الْجِنَانِ !

وكما يشير إلى حسرته اللاذعة وألمه الدفين ببيت (ولكن . .) يجلوها هنا واضحة على لسان الحصان . (أعن هذا ؟) ، (سنّ المعاصى) ، (مفارقة الجنان) إن هذه الكلمات لتفيض بالأنين ، وتُصعّد لهيب الزفرات ، وتموج بمتوقد اللوعات ! !

على أنه فى هذه القصيدة يتمنى أن لو كانت هذه المغانى (هى دمشق) إذن لكان له فيها شأن غير هذا الشأن ، فدمشق مستقر العرب الأمجاد ، ومنازل الأسخياء الأجواد :

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقَ ، ثَنَى عِنَانِى لَبِيقُ الثُّرْدِ صِينِيُّ الجِفَانِ (١)
يَلَنْجُوجِيُّ مَا رُفِعَتْ لِضَيْفٍ بِهِ النِّيرَانُ ، نَدِّيُّ الدُّخَانِ (٢)

فهو يستكثر هذا النعيم على أبناء العجمة ، ويود لو انتقل ما عندهم من الخير لأبطال العروبة .

* * *

ولقد نراه مع هذا قد جاوز فى هذه النونية حدود الإجادة والإتقان ، وبث كل مافى نفسه من هموم وأشجان ؛ فوفق أيما توفيق ، وأبدع ما شاء له الابداع ؛ فلو صفا له الجو ، ونال ما يرجو من المطالب ، وعاش فى الحواضر عيش الحضرى المهنأ النفس ، الناعم الحال ، الهادىء البال - لرجونا أن تجلو شاعريته محاسن الحضر ، ومنظر السماء والسحاب والمطر ، والبساتين النواضر ، غب الغمائم المواطر ؛ ولتوقعنا أن يجود على هذه النواحى التى أهملها باوصاف تشنف الآذان ، وتزرى بنغمات الأوتار والعيدان ، وتفوق ألحان الأطيار ، فى نسائم الأسحار . فلقد فاتنا من سحر أبى الطيب وإبداعه فى فنه خير كثير . إنه نزل لُبنان وعاش فيها زمنا ، ولكن لم يكن كالمرحوم شوقى بك مصطافا للذة والمتاع ، والاحتفال بحسن المناظر ، واهتبال النهزة لاجتلاب السرور ، بين إخوان له مكرمين ، وعلى راحة نفسه حريصين ، فلذلك لم يكن يهش لها حتى يقول مثل شوقى فى قصيدته التائية مثلا ، ومطلعها :

السحر من سود العيون لقيتُه والبابلىّ بلحظهن سُقيتُه

---

(١) لبيق الثرد : حسن الثريد

(٢) اليلنجوج عود يتبخر به ، وكذلك الند ، ومعنى النسب إليهما : أنه يوقد النار للضيفان بذاك العود ، ودخانها يصاعد رائحة الند .

إذ يقول منها :

لُبنان والخلد اختراع الله ، لم يُوسَمْ بأزين منهما ملكوته
وكأنّ أيام الشباب ربوعه وكأنّ أحلام الكعاب بيوته
وكأن ريعانَ الصبا ريحانه سر السرور يجوده ويقوته (١)
وكأن أندية الكواعب تينه وكأن أقراط الولائد توته

وهذا شعر ينم على شعور بالنعمة عميق ، وحب للطبيعة الجميلة شديد ، ونفس فرغت (ولو إلى حين) من هموم الحياة إلى اللذة والمتاع ؛ بل أكاد أقسم : تالله ما هذا شعرا ؛ إن هو إلا مداعبة لطفلة مضحاك لعوب ، وتدليل لطفل غرير بسام ، ومناغاة عذبة ، ما أحلى وقعها فى الآذان ، وما أخف ألحانها على القلوب والنفوس .

أما المتنبى فقد نزل لبنان نزول الرعيان ، وقطاع الطريق ورجال العصابات فى ذلك الزمان ؛ وإنه ليحدثنا عن هذا فى قصيدة له يمدح بها عضد الدولة ، ويستعيد ذكريات لُبْنان وقد بعد عهده بها ، والذكريات (جميلةً أو غير جميلة) عزيزة على النفس ، حبيبة إلى القلب ، كأنها أفلاذ الأكباد :

أُحِبُّ حِمْصًا إلى خُنَاصِرَةٍ وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحْيَاهَا
حَيْثُ التُقَى خَدُّهَا وَتُفَّاحُ لُبْـــنَانَ وَثَغْـرِى عَلَى حُمَيَّاهَا
وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا
إِنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةٌ رَعَيْنَاهَا أَوْ ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوْنَاهَا
أَوْ عَرَضَتْ عَانَةٌ مُقَزَّعَةٌ صِدْنَا بِأُخْرَى الجِيَادِ أَولاَهَا (٢)
أَوْ عَبَرَتْ هَجْمَةٌ بِنَا تُرِكَتْ تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاهَا (٣)

(١) يجوده : يمطره من جاده ، مثل جادك الغيث . . . ويقوته : يطعمه .
(٢) العانة : القطيع من حمر الوحش ـ مقزعة . مفرقة كالقزع ، وهى قطع السحاب .
(٣) الهجمة من الابل : ما بين السبعين إلى المائة ـ كاس البعير يكوس : مشى على

وَالْخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ تَجُرُّ طُولَى الْقَنَا وَقُصْرَاهَا[1]

فكيف نطلب إليه (بعد ذلك كله) أن يحوّل بصره عن البادية وخشونتها ، إلى الحياة الناعمة اللينة ؛ ليجلو علينا مباهجها ، ويبرز لنا محاسنها تتراءى فى حلة من الشعر مزدانة ، وتختال فى معرض من التصوير يأسر الألباب ؟ أرأيت نجديا يصف غابات الهند ؟ أم هل سمعت قطبيا يتغزل فى شمس خط الاستواء ، وألوان الطيف منها عند مساقط الماء ؟ . . . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

— ٨ —

وإن تعجب فعجب أن المتنبى (على براعته) قد يهرب من الوصف حينما يطلب إليه ؛ ولعلك تحسب هذه الدعوى منا جرأة وتجنيا عليه ؛ ولكن لا تعجل ولا تذهب مع بعض الظنون ، فقد نسوق إليك البرهان ، ونحاول تعليل ذلك بدواعى الاطمئنان :

(ا) إن كافورا بنى دارا ، ورغب إلى أبى الطيب أن يذكرها فى شعره ، والذى أستطيع فهمه فى مثل هذا المقام أنه يطلب وصف الدار بذكره محاسنها ، أما التهنئة بها ، والدعاء للبانى بطول البقاء والتمتع بها ، وإنشاء أمثالها ، فكل ذلك يجىء عرضا فى حواشى الغرض ، والوصف هنا هو عمود الكلام — . فماذا فعل أبو الطيب ؟ إنه زاغ من الوصف ، إى وربك ؛ ولا وحرمة الأدب ما سخت شاعريته لها عن شطر واحد ، بله البيت والأبيات ! ! ولكنه وقف يتهكم بكافور ويضحك منه ومن سواد لونه ، بذلك النوع الخبيث من المديح ، فى قصيدة همزية مطلعها :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدَّنِى مِنَ الْبُعَدَاءِ
وَأَنَا مِنْكَ ، لَا يُهَنِّئُ عُضْوٌ بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرَ الْأَعْضَاءِ

(ب) وقد مد نهر حلب حتى أحاط بدار سيف الدولة ، فما تندى لسان

ثلاث والرابعة معقورة ـ الشروب : جمع شرب : جمع شارب ، أى شاربى الخمر ـ العقرى جمع عقير ، مثل قتلى وقتيل .

(١) الطولى والقصرى : أنثى أطول وأقصر

صاحبنا بقطرة واحدة فى وصف هذا المنظر ، بل انطلق يرتجز ارتجالا ، فى نفس ليس بالقصير ، واتخذ المدّ تُكأة ومعتمداً ، كى يقول فى مدح البحر الأكبر الذى يزرى بالبحار ؛ وصار يظن الماء ، يزاحمه فى طلب العطاء ؛ أو يريد مباراة الممدوح ... الخ

حَجَّبَ ذَا الْبَحْرَ بِحَارٌ دُونَهُ يَذُمُّهَا النَّاسُ وَيَحْمَدُونَهُ
يَا مَاءِ هَلْ حَسَدْتَنَا مَعِينَهُ ؟ أَمْ اشْتَهَيْتَ أَنْ تُرَى قَرِينَهُ ؟

(ح) ونثر عضد الدولة فى مجلسه وردا ، وأبو الطيب حاضر ، فبدأ شعرا فى المدح وأتمه بالمدح ، ولم يعرض للورد إلا ببيت واحد ، وهو على ذلك غث بارد لا روح فيه :

كَأَنَّمَا مَائِجُ الْهَوَاءِ بِهِ بَحْرٌ حَوَى مِثْلَ مَائِهِ عَنَمَا

(ى) وأحضر له أبو العشائر جوشنا (درعا) وقال : كيف تراه ؟ والمراد بالطبع أن يصف ، فارتجل بيتين كأنهما ليسا من شعر المتنبى ، يقول فيهما : إن من يلبسه يأمن على نفسه بين الصفوف ، وينصح لأبى العشائر أن يتركه ، فإنه من قوم تغنى شجاعتهم وسلاحهم عن الدروع .

فاذا عرض للوصف فى مثل هذه الأحوال ، كان فاترا لا تماسك به ولا غناء

(ا) أحضره أبو الفضل بن العميد مجمرة محشوة بالنرجس والآس ، والدخان يخرج من خلال ذلك ، فقال فيها :

أَحَبُّ امْرِئٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مَعْطِسُ
وَنَشْرٌ مِنَ النَّدِّ لَكِنَّهُ مَجَامِرُهُ الآسُ وَالنَّرْجِسُ
وَلَسْنَا نَرَى لَهَبًا هَاجَهُ فَهَلْ هَاجَهُ عِزْكَ الْأَقْعَسُ ؟
وَإِنَّ الْفِتَامَ الَّتِي حَوْلَهُ لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأُرْؤُسُ

الفتام : الجماعة ونراه هنا مس الموصوف مسا خفيفا ، وحفه بالمدح من بين يديه ومن خلفه ، والمبالغة السخيفة ،فقال (كما فى الشرح) إن الرءوس تحسد الأرجل لقيامها فى خدمة الممدوح .

(ب) وناوله محمد بن طغج سيفا ؛ فأشار الشاعر به إلى بعض الحاضرين قائلا :

أَرَى مُرْهَفًا ، مُذْهِشَ الصَّيْقَلِينَ وَبَابَةَ كُلِّ غُلَامٍ عَتَا (١)

أَتَأْذَنُ لِى (وَلَكَ السَّابِقَاتُ) أُجَرِّبُهُ لَكَ فِى ذَا الْفَتَى ؟

(اطلع يا قاتل)

وإنك لتراه فى أكثر ما سبق غير مخلص لفنه من الوصف ، فلا يرضى الناحية الفنية بقدر ما يبغى رضا ممدوحيه ؛ ويتخذ الحادث سلما لإرضاء نزعتهم إلى المدح ورغبتهم فيه ، ولعله كان يعرف فيهم هذه الرغبة ، فيضحى بالفن الخالص فى سبيل تملقهم ؛ وقد تحيرت فى تفسير هذه الظاهرة ، حتى هدانى أبو الطيب نفسه إلى هذا التعليل ، فإنه حضر عند بدر بن عمار وهو على الشراب ، والفاكهة حوله ، فقال فيه مدحا جاء فى تضاعيفه :

بِأَبِى رِيحُكَ ، لَا نَرْجِسُنَا ذَا وَأَحَادِيثُكَ ، لَا هَذَا الشَّرَابُ!

أما الغريب حقا فهو أن يطلب إليه سيف الدولة وصف حصان لكى يهديه إليه ، فلا ينشط للوصف ، ولا يجىء إلا بثلاثة أبيات فائية : أولها مدح ، وفى ثانيها إجمال لوصف الحصان بلفظ (مطهم) والثالث تفويض الأمر إلى الأمير فيما يختار مع شىء من المديح .

— ٩ —

والظاهر أن المتنبى كان متكبرا واثقا بنفسه ، فلا يهتز لمثل هذه الأمور ؛ فقد أحضر له بدر بن عمار (بمشورة عدوه الأعور ابن كروس) لعبة فى مجلسه ليختبر بداهته وسرعة خاطره ؛ وهى ذات شعر ، وفى يدها طاقة ريحان ، وتدور

(١) البابة : الآلة

على رجل واحدة، فارتجل فيها ثلاثة أبيات من بحر ؛ ثم ثلاثة من بحر آخر ، يغلب على الجميع المدح والوصف المعنوى ، وقد كان فطن للاختبار ، فسأل بدرا فى ذلك ، فقال : أردت أن أنفى الظنة عن أدبك ، فقال ببتين نروى ثانيهما الذى يفيض ثقة بالنفس :

إِنِّى أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ يَزِيدُ فِى السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارَا !

وهذا يذكرنى موقف ابن حمديس الشاعر من ابن عباد الملك : دخل عنده لأول مرة فأجلسه ، وأمره أن ينظر من نافذة وراءه ، فرأى نارا مشبوبة وراء طاقين مفتوحين ، وقد جعل الموكل بها يقفل كلا من الطاقين ، ثم يفتحه على التبادل ، ثم ترك أحدهما مفتوحا تتراءى منه النار ، والآخر مقفلا يمنع ضوءها ، فقال ابن عباد : أجز

انظرهما فى الظلام قد نجما فأجاب : كما رنا فى الدُّجنَّة الأسدُ

فقال :

يفتح عينيه ثم يقفلها (١) « : فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال :

فابتزه الدهر نورَ واحدة « : وهل نجا من صروفه أحد؟

فهل لنا أن نفضل ابن حمديس على المتنبي بسرعة البديهة والاجادة فى الوصف بديها ؟ إن موقف ابن حمديس يدعو حقا إلى الاعجاب ، يجيب بسرعة على وزن لغيره لاخيار له فيه ، والمتنبي فى مثل موقفه مطلق حر الاختيار ، ويتبلد عن الوصف ، ويستن فى ميدان المديح !!

لكن لا يفوتنا أن الشاعر الصقلى ورد ساحة ملك شاعر ، راجيا الحظوة عنده ، ولا وسيلة له ولا شفيع يكشف عن مكانته للملك ، وهو بعد لا يعرفه ،

(١) يريد يقفلهما ـ والشيئان إذا اصطحبا وقام كل منهما مقام صاحبه ، جرى عليهما كثيراً مايجرى على الواحد . قال الشاعر :

لمن زحلوقة زل بها العينان تنهل ؟

راجع تنبيه البكرى على أمالى القالى ص ٣٩ طبع دار الكتب المصرية

فكان هذا داعية الإتقان ، أما أبو الطيب فكأنما يرى مختبريه أطفالا ، ويحسب كلامهم نقيق ضفادع ، فلا يأبه لهم ولا يباليهم . وهو بعد مولع بالحرب وأسباب المجد ، فلا يصرف همه إلى مثل هذه الصغائر ، التى يراها لونا من العبث ، وضربا من فضول العقل واللسان . رأى فى يد أبى العشائر بطيخة سوداء حولها قشر من الخيزران ، والظاهر أنها نوع من اللُّعب التى كانت تعرض له فى مجالسه ، فقال:

مَا أَنَا وَالْخَمْرَ وَبِطِّيخَةً سَوْدَاءَ فِى قِشْرٍ مِنَ الْخَيْزُرَانْ ؟
يَشْغُلُنِى عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا تَوْطِينِىَ النَّفْسَ لِيَوْمِ الطِّعَانْ !

ودخل عند أبى العشائر أيضا ، فوجد بين يديه من ينشده قصيدة وصف لبركة فى داره ، فأنف لأبى العشائر أن يُلقى السمع لمثل هذا الهراء ؛ وأبدى رأيه جليا فيما يحسن فيه الكلام ، وما يليق به الترك والإهمال ؛ فاستمع لما ينشد مرتجلا:

لَئِنْ كَانَ أَحْسَنَ فِى وَصْفِهَا لَقَدْ تَرَكَ الْحُسْنَ فِى الْوَصْفِ لَكْ
لِأَنَّكَ بَحْرٌ ، وَإِنَّ الْبِحَارَ لَتَأْنَفُ مِنْ مَدْحِ هٰذِى الْبِرَكْ !

وإن هذا وحده ليفسر لنا إعراضه عن الوصف إلى المدح فى أكثر الأحوال .

— ١٠ —

وقد آن لنا أن نراجع بعض لفتاته فى الوصف ، وإنها لكثيرة فى شعره بجميع ضروبه ، وقد لاحظنا أن هذا الضرب لا يخلو منها ؛ وقد مر بك فى صدر المقال (عند وصف الحصان) أنه يشكو قلة الأصدقاء المخلصين الأوفياء (وما الخيل إلا كالصديق قليلة) ، ويرشد بعد ذلك إلى الحذر من الاغترار بالظواهر ، ويوصيك بالتغلغل وراءها . لتدرك مبلغ صدق عنوانها على باطنها (إذا لم تشاهد . . .) وكأنه يضرب ذلك (فى الخيل) مثلا لحكم عام تجعله ميزانك فى كل الأمور .

وقد رأيت كثيرا من هذه اللفتات فى وصف شعب بوان ، وعرضنا ثَمَّ لبيان مصدرها وموردها ، أما الذى مر فى وصف الأوعال ، والضحك والإضحاك

من لحاها ، فلعله يقصد به إلى قوم بأعيانهم ، قد اتخذوا مظاهر التقوى والصلاح جُنة لهم يستدفعون بها انتقاد الناس ، ويظهر أنه كان يطلع على خائنة منهم ، فليس هو بالذى يغره الغلاف ، فتخدعه زينته عن استبطان صحائف الكتاب ، والتفتيش عما وراء السطور والكلمات ، وأكبر الظن أنه يريد بعض من يدّعون للعلوية ، وليسوا منها ولا قلامة ظفر ، لا عملا ولا نسبا ولا خُلقا ، يضاف إلى هذا التفاته إلى ذيل الكلب فى أرجوزة الطرد : (يَخُطّ فى الأرض حِسَاب الجُمَّل) والذين يدعون العلوية يزعمون أن عليا (كرم الله وجهه) كان عالما بكل الحوادث المنتظر وقوعها ، وأودع علمه ذلك (كتاب الجفر) الذى يحوى عبارات رمزيّة ، لا تلقى إليك بأسرارها ، حتى تعالجها علاج الرموز ، بوضع الأرقام والأعداد موضع الحروف والكلمات ، ثم تستشف ما وراءها من تواريخ ، ووقائع ، وأعلام أشخاص ، وأسماء أماكن وبُلدان . ويصطنعون حساب الجمّل لمعرفة تلك الأمور الغيبية من سعود ونحوس ، وإقبال وإدبار ؛ ولا شك أن المتنبى كان يتحرق على هؤلاء الأدعياء غيظا ، ولعلهم هم الواترون ، وهو الموتور ألا ترى إلى أوضح التفاتة فى وصف بحيرة طبرية :

يَشِينُهَا جَرْيُهَا عَلَى بَلَدٍ بَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَسَمُ

وأوضح من هذا قوله فى موطن آخر (يقصد طبرية)

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلاً وَتُرْبَةً بِهَا عَلَوِىٌّ (جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمِ)

ويقول فى قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين بن طاهر العلوىّ :

إِذَا عَلَوِىٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلاَّ حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

— ١١ —

ولأبى الطيب (بعد هذا كله) أوصاف تتصل بالغزل . وقد أبدع فى أكثرها ، وجاء فيها بفتنة القلوب والأسماع ، وإنا لنثبت بعضها مستغنين بالطل عن الوبل . قال فى خصر جميل يجتذب العيون من حوله ، فتثبت فيه ولا تتحول عنه كأنها عليه نطاق :

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

وينظر إلى غانية يزين التثنى والبختريّة مشيتها فيقول :

كَأَنَّمَا قَدُّهَا إِذَا انْفَتَلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمْرِ طَرْفِهَا ثَمِلُ

وكأن ابن زيدون قد لمح هذا البيت حينما قال فأحسن فى السبك :

ما للمدام تُديرها عيناك فيميل فى سكر الصبا عِطفاك ؟!

ويقول فى حسن التبختُر مع نعومة الجسم وجمال الثغور :

حِسَانُ التَّثَنِّى ، يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ (إِذَا مِسْنَ) فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى زُيِّنَتْ بِالْمَبَاسِمِ (١)

انظر كيف يترك الوشى شبيه صورته فى تلك الأجسام الناعمة ؟ وله فى موقف وداع :

وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِناً حَسَنُ الْعَزَاءِ (وَقَدْ جُلِينَ) قَبِيحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ وَحَشًا يَذُوبُ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ !!

وفى موقف مثله أيضا :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ : أَىَّ الظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ ؟

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ ، فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْآمَاقِ ، والسِّمُ أَدْمُعُ ! (٢)

* * *

— ١٢ —

ولقد أتى بالبارع الباهر فى الأوصاف المعنوية ، وعواطف النفوس وما يصدر عنها ؛ فمن ذلك وصفه لموقف سيف الدولة فى الحرب : هادئا والموت

(١) التراقى : جمع ترقوة وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق فى أعلى الصدر ومنه قوله تعالى « حتى إذا بلغت التراقى » .

(٢) السم : لغة فى الاسم ، وميمه مخففة ؛ والسين مثلثة

يتخطف الأرواح من حوله ، باسما والأبطال يمرون به عبس الوجوه ؛ وهو متعالم مشهور . ومنه أثر الوهم فى النفوس ، كما يصور هرب الدُّمُسْتُق :

وَلٰكِنَّهُ وَلّٰى ، وَلِلطَّعْنِ سَوْرَةٌ إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الْجَنْبَا

وكذلك هرب بنى تميم ، وضيق الأرض بهم ، أمام جيش سعيد بن عبد الله ابن الحسن الكلابى ، فالوهم يخلق لهم أشباحا ، فينفخ فيها فتصير رجالا :

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ ، حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا

وما أجمل وصفه للحب ، إذا تردد بين خوف القطيعة ورجاء الوصال ! :

وَأَحْلَى الْهَوَى : مَاشَكَّ فِى الْوَصْلِ رَبُّهُ

وَفِى الْهَجْرِ : فَهْوَ ـ الدَّهْرَ ـ يَرْجُو وَيَتَّقِى

ويصف بعض ممدوحيه بالوقار مع خفة الروح ، ويعجب من اجتماع هاتين الخلتين عجبا ينبهك إلى جمال البيت :

يَرُوعُ رَكَانَةً ، وَيَذُوبُ ظَرْفًا فَمَا نَدْرِى : أَشَيْخٌ أَمْ غُلَامُ ؟ !

ومثله فى الجمع بين وصفين متباعدين ، جمعه بين الحياء الخجول والشجاعة المتجهمة :

نُصَرِّعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَنْبُو عَنْ وُجُوهِهِمُ السِّهَامُ

... ...

حَيِيُّونَ ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِى نِزَالِهِمْ أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

وفى خَوْد ممنعة بصوان أهلها وحمايتهم لها يقول :

بَيْضَاءُ ، تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذٰلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَا !

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ : يُعْيِى كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا ، وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وفى أخرى مثلها :

فِيهِنَّ مِنْ تَقْطُرُ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا

ووصفه الحمى التى أصابته بمصر أبلغ تصوير فى أبدع طراز :

وَزَائِرَتِى كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلاَّ فِى الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَافَتْهَا ، وَبَاتَتْ فِى عِظَامِى
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ جِسْمِى وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقَتْنِى غَسَّلَتْنِى كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِى مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةٍ سِجَامِ
أُرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا ؛ وَالصِّدْقُ شَرٌّ إِذَا أَلْقَاكَ فِى الْكُرَبِ الْعِظَامِ

وهذه القطعة الفنية غنية بنفسها عن التعليق ، تسبق معانيها إلى الأذهان . ألفاظها إلى الآذان . ولكن انظر إلى إبرازه الصورة المعنوية ، بحيث ترى ملموسة محسوسة . ألم يخدعك أبو الطيب : فتصورت غادة حسناء ، تسعى إليه تزوره على استحياء ، فتدرّع لذلك جلباب الظلماء ، خوفا وخفية من أعين الرقباء ؛ حتى إذا أقبلت استقبلها مرحبا كالمشغوف بها ، وقدّم إليها الفرش والغطاء ؛ ولا تزال به منخدعا حتى ينبهك إلى الحقيقة من طرف خفىّ ، إذا أبت الزائرة المطارف والحشايا ، وباتت منه فى العظام . وحينئذ فقط تدرك الخديعة ، وتعرف الحقيقة ، وتعلم ما كان من قبل يريد .

* * *

وما أنس من شىء لا أنس وصفه ليته الأسد وثقته بنفسه ، إذ يمشى على الأرض متمهلا ، كأنه يريد أن يشعرها بمشيه فوقها ، لتأخذ حذرها ، فلا يأخذها ميد ولا اضطراب :

يَطَأُ الثَّرَى ، مُتَرَفِّقاً ، مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلاَ

فما قرأت هذا البيت ، أو سمعته ، أو تدبرته ، إلا ذكرت منظرا شبيها به ، لنمر بإحدى غاب الهند ، تراءت صورته على سبيبة الخيالة ، فشاهدته يمشى هادئا مترفقا ، يمد قوائمه إلى الأمام ، وينقل الخطو بانتظام ، كأنما يوقع الخطا على أوتار الغطرسة فى نفسه والكبرياء ، وعيناه تجول حوله ، غايةً فى الهدوء ونهاية فى السكون .

هذا إلى وصفه الزمان وتقلبات الأيام ، بما لا يتفق مثله لكثير من الشعراء .

— ١٣ —

وبعد : فإنى قدرت لهذا الموضوع (حين استقبلته) كراسة أو مايدانيها ، فلما أقبلت أجيل الرأى فيه ، تشعب أمامى وتباعدت نواحيه ، فما زلت به أروض نوافره ، وأجمع متفرقه ، حتى استقاد وتدانت أطرافه ، وفى نفسى أنى ما شفيت منه نفسى ، فقد كنت آمل أن أجلو منزلة المتنبى فى الوصف بين الشعراء الوصافين ، بطريقة يسندها البرهان ، ويطمئن لها العقل والوجدان . ولكنى رأيت ذلك محتاجا إلى تأليف كتاب ضخم ، يتناول جل وصف المتنبى ، وكثيرا من وصف سابقيه ولاحقيه : عرضا وتحليلا ، ونقدا وموازنة وتعليلا ، حتى نتبين مبلغ تأثره السابقين ، ومقدار تأثيره فى اللاحقين ، فهل إلى ذلك من سبيل ؟ إن قلبى يحدثنى بمحاولة هذا الكتاب ، فيما يستقبل من الزمان ، فعسى الله أن يصرف الشواغل ، ويرزقنى التوفيق فيما أحاول ؛ فإنه (تعالى) هو الموفق والمستعان ؟

المتولى قاسم